

التعاقد حرّية

الأب جورج صقر
رئيس مجلس الإدارة
٢٠١٥

"يستطيع كل إنسان منا البحث عن سعادته وفرحه بالطريقة التي يريد وكما تبدو له هذه الطريقة أنّها سليمة، شرط أن لا ينسى حرّية الآخرين وحقّهم في الشيء ذاته" (إيمانويل كانت).

لم يتوصّل الإنسان سابقاً كما توصّل اليوم إلى إدراك معنى الحرّية بكلّ أبعادها، فالأفراد والجماعات يتوقون إلى العيش بحرّية، لكن في الوقت نفسه وتحت غطاءها تظهر أشكال جديدة من الإستغلال والإستعباد الإجتماعي والنفسي. إنّ طريق الحرّية كما طريق الإستعباد هما مفتوحتان أمام الجميع، كذلك طريق النقص أو التقهقر، وطريق الأخوة أو البغض. غير أنّ الإنسان يتّجه نحو الخير بملء حرّيته، حرّية يعتبرها مجتمعنا المعاصر قيمة سامية ويبحث عنها بشغف، وهو في ذلك على حقّ، ولكن غالباً ما يُعبّر عنها ويعيشها بطريقة منحرفة، ويعرّف عنها بأنّها مدخل لفردوس السعادة والفرح، حتى وإن كان شراً، وفرصة ليعمل كلّ ما يشاء.

١. مفهوم الحرّية

إنّ مفهوم الحرّية، كما حدّده الفيلسوف إيمانويل كانت، يعني "قدرة الإنسان على التقرير والإختيار، وتحديد إمكانيّاته من بين إمكانيّات عديدة موجودة وممكنة". يميّز الفيلسوف (كانت) بين "الحرّية الشخصية أي إمكانيّة اتخاذ القرار دون قيود، وهي حقّ طبيعيّ، وبين الحرّية الموجبة أي الحرّية المعطاة للإنسان ليستطيع ممارسة حرّيته الشخصية، وهذه هي حقّ إنسانيّ أساسي". الحرّية عنده لا تُستجدي، كما أنّها لا تُباع ولا تُشتري. هي الحرّية الكاملة التي تتحرّك ضمن القوانين الطبيعيّة وإمكانيّة إتخاذ القرار الشخصي دون قيود، دون أن يطلب الإنسان الحقّ من أحد، ودون التبعيّة لإرادة الغير أيضاً، إذ لا يستطيع أحد إلزام الآخر بالطريقة التي يريدّها هو، أو إقناعه بما هو الأفضل له وللآخرين ليصبح فرحاً وسعيداً. إنّ حماية النفس فقط هي السبب الوحيد الذي يجعل المجتمع أو فئة منه تتدخل في حرّية أحد أعضائه لضبط تصرّفاته، وذلك لحمايته الشخصية وحماية الآخرين من أضرار ذلك التصرّف.

إنّ وعي الناس في مجتمعنا المعاصر للحفاظ على كرامة الشخص البشريّ يتزايد يوماً بعد يوم، لكنّه، في الواقع، ما من شريعة إنسانيّة تستطيع أن تحافظ على كرامة الإنسان وحرّيته، مثلما يحافظ عليهما إنجيل المسيح، الذي يُبشّر بحرّية أبناء الله ويعلمها ويرفض كلّ استعباد، فالمسيح قد حرّرنا لنكون حقّاً أحراراً. نمت هذه الحرّية التي أعطانا إيّاها المسيح، وتجدّرت في الجماعة المسيحيّة الأولى بفضل تعاليم الرسل، وقد تجسّدت "بالمشاركة" الروحيّة والماديّة، العنصر الأساس في تكوين هذه الجماعة، "وكان المؤمنون يجتمعون معاً، ويتشاركون في كلّ شيء، يبيعون أملاكهم، ومقتنياتهم، ويتوزّعونها على قدر حاجة كلّ منهم" (أع ٤: ١-١٥).

٢. التعاضد حرّية

ليس التعاضد بمفهومه المعاصر سوى تلك "الشراكة" الفعلية بين الغنيّ والفقير التي عاشها المسيحيّون الأوّل بحريّة كاملة، ومارسوها بملء إرادتهم، بعدما امتلأوا من روح المسيح الربّ القائم من الموت. " ... وحيث يكون روح الربّ فهناك تكون الحرّية" (٢قورنثس ٣/١٧). يشدّد القديس بولس على هذا الرابط الوثيق بين الحرّية والشراكة في رسالته إلى أهل غلاطية، ويحثّهم على خدمة بعضهم بعضاً بالمحبّة: "أنتم، يا إخوتي، دعاكم الله لتكونوا أحراراً، لا تجعلوا هذه الحرّية ستاراً للشرّ، بل اخدموا بعضكم بعضاً بالمحبّة" (غل ٥: ١٣).

لقد تطوّرت مفاعيل الشراكة الحرّة على المستوى الاجتماعيّ وأخذت أشكالاً متعدّدة وطرقاً متنوّعة، بينها التعاضد الذي يشكّل الحالة المثلى، حيث أضحى التعاضد نهج حياة معاصراً مستحدثاً لحياة شراكة المؤمنين في القرون المسيحية الأولى.

يحدّد التعاضد اليوم "بالرابط الأدبيّ الذي تقوم على أساسه وتتنظّم كلّ علاقة في المجتمع. هو ميثاق حرّ يربط أبناء المجتمع، المختلفين واحدهم عن الآخر، فيجعل منهم مجموعة واحدة متعاونة ومتساوية في الحقوق والواجبات، كما أنّه نهج في التعاون وتحمل المسؤولية يُعزّز المواطنة الصالحة، وينتج الديمقراطية الأصيلة المرتكزة على إرادة حرّة ومستقلّة،" (النظام الأساسيّ للإتحاد الدوليّ للتعاضديات، ١٩٦٢).

٣. حرّية التعاضد

التعاضد، هذا الرابط الأدبيّ والميثاق الحرّ، يُشكّل الإطار الاجتماعيّ الضامن لترقيّ الإنسان، والحافز الأقوى له كي يحقّق ذاته فاعلاً ومنتجاً في مجتمعه وبيئته، ومتمتعاً بحياة كريمة، وبالحرّية التي يضمنها التعاضد:

- تُبنى أسس العدالة وتتحقّق المساواة بين جماعة المتعاضدين.
- يُمحّص الإنسان الفرد، يُجرّد من ال"أنا" الذاتية، ويصهر في ال"نحن" الجماعية، فيصبح الكلّ واحداً.
- يُحرّر من التبعية والإستنزلام للآخر، ومن الخضوع لأوامر مالك السلطة والمال.
- تُحفظ كرامة الفرد وحقوقه، يُعزّز التزامه القيام بواجباته، وتُصان مراعاة القوانين والأنظمة المتبعية.
- تتعزّز الروح الديمقراطية، وينتفش الاقتصاد الاجتماعيّ.

خاتمة

لا بدّ من الإجابة على سؤال يطرحه التعاضديّون عن كيفية وضع مبادئ التعاضد ومنافعه حيّز التنفيذ، وتعميمها على كافة مكونات المجتمع لتبنيها، والإفادة من مفاعيلها المجرّدة عن كلّ متاجرة واستغلال.

أيها التعاضديّون، إنّ الجواب على سؤالكم هذا تجدونه في إيمانكم بالتعاضد كنهج حياة، وانتسابكم، بإرادة حرّة ومستقلّة، إلى الصندوق التعاضديّ الاجتماعيّ الصحيّ الذي هو أنتم مجتمعين. يثمن الصندوق اختياركم ويحترم قراركم بالانتساب إليه. وبطاقته التعاضدية التي تحملونها هي جواز سفركم إلى عالم الحرّية الذي تتوقون إلى العيش في رحابه. هذه "البطاقة الشخصية" هي أنتم، كلّ فرد منكم. فبقدر ما تقدّرونها وتفخرون بها، يسارع المعنيّون دون إبطاء إلى تلبية كلّ ما قد تحتاجون إليه من خدمات صحيّة واستشفائية. ثقوا بأنّ الصندوق، بدوره، يحرص كلّ الحرص على الوقوف إلى جانبكم، كأحد مكوناتكم، للدفاع عن حقوقكم والحفاظ على كراماتكم، مهما بلغت الأثمان والتضحيات.

أيها التعاضديّون، تعالوا نستكمل معاً مسيرتنا التعاضدية نحو "الحرّية الكاملة"، لنعلنها ثورة على ظلم الناس، والتبعية والإستغلال والمتاجرة بوجعهم وآلامهم، سلاحنا التعاضد، لأنّ التعاضد حرّية وثورة.